توظيف الحلم في النص القرآني

(سورة يوسف)

م. م. ضفاف عدنان هاشم
قسم الخط العربي والزخرفة
كلية الفنون الجميلة

الحلم ظاهرة معروفة لدى جميع الناس على أختلاف أجناسهم وألسنتهم وطبقاتهم ((فهناك الكثير من الظواهر المعروفة عند الناس يتحدثون بها يومياً حول رؤية الأحلام ، وأن هذه الأحلام قد تحققت أو التنبؤ بأحداث معينة وحصول هذه الأحداث فعلاً مثل هذه الأحداث لم تكن وليدة اليوم فهي موجودة منذ القدم ولدى مختلف الجماعات والحضارات والى يومنا هذا نسمع ونرى ونقرأ الكثير منها))[١]. والأيمان بالأحلام قديم قدم الثقافات الأنسانية التي مرت بها البشرية على أختلاف مراحل تطورها فكانت الأحلام وسيلة للكشف عن المستقبل والتنبؤ بالغيب الذي يمثل صورة المجهول أذ يثير مخاوف الأنسان ويسيطر عليه في كل الأماكن وعلى أمتداد العصور ولقد ((أبرزت الثقافتين اليونانية والرومانية أساطير محكمة ولقد عكست معتقدات عامة أسست على الخبرة، وتشير السجلات المختلفة الى الأعتقاد بالأستشفاف وأحياناً بالأحلام التنبؤية حتى بين الفلاسفة ويبدو أن مثل هذه الأحلام قد قبلت بصورة عامة على أنها اتصالات من الإلهة. الا أن بعض الفلاسفة وبخاصة ديمقراطيس وأرسطو فكروا بأن عملية الحلم هي من المحتمل أن تكون وظيفة طبيعية للعقل))[٢]. فالاهتمام بالأحلام ظاهرة عامة لدى جميع الأمم والثقافات في العالم، ((ونحن نعلم كذلك بأن المصريين القدماء كانوا يهتمون أهتماماً كبيراً بالأحلام ، وكانوا يؤولونها بطريقة محسوسة جداً))[٣]. فكل حدث له مدلول رمزي خاص به فمثلاً((التأويلات التالية مستقاة من مخطوطة على ورق البردي محفوظة من ذلك العهد فأن عانقت امرأة زوجها في الحلم ، فأنها سوف تصادف صعوبات وأن ولدت هراً فسوف يكون لديها الكثير من الأطفال. وأن ولدت كلباً، فسوف يكون لديها صبي))[٤]. فالأحلام مرتبطة بالمستقبل ومتى ما تحققت أزداد الأنسان تعلقاً بها وأزداد أحساسه بالخوف منها ((فالأحلام ليست هي هكذا وببساطة مجرد " أكاذيب" بل أنها رسائل موجهة الى الذات والحلم يتحدث بلغة مجازية تختلف قواعدها عن قواعد اللغة المحكية وكل عنصر من عناصره له أرتباطه الشديد العرى بأفكار أخرى))[٥].والحلم في اللغة "الرؤيا" والجمع أحلام يقال : حلم يحلم أذا رأى في المنام وتكلف حلماً : لم يره يقال حلم ، بالفتح أذا رأى ، وتحلم اذا أدعى الرؤيا كاذباً ، وفي الحديث : الرؤيا من الله

والحلم من الشيطان والرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح)) (٦).

" والحلم ": الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها كما يكون من حديث النفس ووسواس الشيطان (٧).((والرؤيا الصالحة بشرى في الحياة الدنيا وفي ذلك نزل القرآن الكريم بقوله : ((لهم البشرى في الحياة الدنيا)) والأيمان بالرؤيا الصالحة واجب ، ودين ، ولا ينفيها الا ملحد كذاب)) (٨).

وقد ورد في القرآن الكريم في سورة يوسف أربع أحلام لقد شكل الحلم في قصة يوسف بنية مهمة في تطور ونمو الأحداث بشكل مطرد فالحلم الأول الذي راه سيدنا يوسف(ع) هو الأساس الذي أرتكز عليه بناء الأحداث المتتالية التي قصتها الآيات فيما بعد فالقص يبدأ من آية الرؤيا وهي الآية الرابعة حيث رأى سيدنا يوسف (ع) ((وهو أبن أثنتي عشرة سنة)) (٩).المنام الذي قصه القرآن ((أذ قال يوسف لأبيه يا أبت أني رأيت أحدى عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين))(١٠).

فالأحداث التي تتولى بعد آية الرؤيا هي تفسير للرؤيا التي رأها يوسف(ع) وهذا التفسير كان في نفس يعقوب(ع) ودليل ذلك خوف يعقوب على يوسف من أن يقص رؤياه على أخوته فـ((قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا كيداً لك أن الشيطان للأنسان عدو مبين)) (١١).

فقد ((نهى يعقوب (ع) أبنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على أخوته فيفهموا تأويلها ويحصل منهم الحسد له)) (١٢).ولما كان يوسف من أحب أبناء يعقوب اليه وأخصهم في قلبه ودليل ذلك قوله تعالى: ((إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا)) (١٣). فقد كان خوف يعقوب من تلك الرؤيا مبرراً وفي تأويلها أشارة الى المكانة العالية التي سينالها نبي الله يوسف (ع) إذ رأى " أحد عشر كوكباً تأويلها : أخوته " والشمس والقمر " تأويلها أمه وأبوه " رأيتهم لي ساجدين "(١٤). أي رأهم جميعاً ساجدين له وهذا السجود أشارة الى ما سينعم به الله على يوسف فقد علمه الله فيما بعد تأويل الرؤيا ومن عليه بالنعم كما خاطبه يعقوب(ع) بعد سماعه الحلم ((فيجمع لك بين النبوة والملك كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله وفي ذلك خير الدنيا والأخرة)) (١٥). وفي نمو الأحداث وتصاعدها فيما بعد ما يشير الى تحقق خوف يعقوب من قص تلك الرؤيا على أبنائه فلما أخبرت زوجة يعقوب أولاده بتلك الرؤيا : ((فأنتفخت أوداجهم وأقشعرت جلودهم غضباً على يوسف وقالوا: ماعني بالشمس غير أبينا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا، ثم قالوا أن أبن راحيل يريد أن يتملك علينا فيقول : أنا سيدكم وأنتم عبيدي ، فحسده على ذلك))(١٦). فنلاحظ الأحداث تتصاعد شيئاً فشيء فيبدأ الحدث صغيراً من بعد قص الرؤيا وسماع أخوة يوسف بها لينمو ويتسع بما يدبروا أخوته له من مكيدة ((فأنطلقوا الى الجب ليطرحوه فيه ، وكان ذلك الجب في الأردن بين مدين ومصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق في وادٍ من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب(ع) وكان بئراً وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق

يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها ، ولا يمكنه الصعود وكان ماؤها مالحاً ، وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جب الأحزان)) (١٧).

فنلاحظ الحدث الذي بدأ من نقطة صغيرة أي من مراودة أبناء يعقوب لأبيهم لأخذ يوسف وطرحه في الجب ووصول السيارة التي كانت قاصدة مصر الى ذلك البئر وأنقاذهم يوسف (ع) منها ثم بيعه الى عزيز مصر (قطفير بن رحيب) ومراودة زوجة العزيز له في بيتها حتى حبسه الملك بعد أن علم ببراءته دفعاً للتهمة عن زوجته)) (١٨). نلاحظ الحدث ينمو ويتصاعد وفي سرد الأحداث وتسلسلها وتتابع القص من الآية الرابعة الى الآية الخامسة والثلاثين في آيات النص القرآني ما يشير الى تفسير الرؤيا وتحققها بشكل تدريجي مع نمو الأحداث وتصاعدها وأن كان نص الرؤيا لا يكشف تلك الأحداث بشكل مباشر ولا يشير اليها صراحة أذ تبدأ الرؤيا من نهاية الحدث بينما يبدأ القص من بداية الحدث وفي الآية السادسة والثلاثين يعود الحلم ليشكل الحدث من جديد أذ يبدأ مسار الأحداث بالتحول مع دخول يوسف (ع) الى السجن ((ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما أني أراني أعصر خمراً وقال الآخر أني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله أنا نراك من المحسنين)) (١٩). والفتيان اللذان دخلا مع يوسف السجن ((هما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر: أحدهما خبازه وصاحب طعامه وأسمه مجلب، والاخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه بيوص، غضب عليهما الملك فحبسهما. ذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن يسمه وأن ساقيه وافقه على ذلك)) (٢٠).وكانا على علم أن يوسف (ع)يعبر الرؤيا ((قال أبن جرير : أنهما سألا يوسف عن علمه ، فقال أني أعبر الرؤيا)) (٢١). وهي أحدى النعم التي من بها الله على يوسف (ع) وفيها من الدلالة على مكانة هذا العلم وفضله حيث أختصه الله سبحانه وتعالى به وجعله من أفضل النعم وفي قوله تعالى :((كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك..)) (٢٢). ودعاء يوسف ((رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث..)) (٢٣). دليل على أن تعبير الرؤيا نعمة لا يهبها الله لكل البشر الا الأنبياء والصديقين والمخلصين من العباد وكذلك أن لتعبير الرؤيا وظيفة بنائية في القص تجسدت في كونها الوسيلة التي أنقذت يوسف(ع) من سجنه حيث تغير مسار الأحداث بعد خروجه من السجن أذ بعد سماع يوسف (ع) لحلم الساقي والخباز كما ورد في الآية السادسة والثلاثين عبر رؤياهما وقال : ((أما أنت أيها الساقي فستعود الى ما كنت عليه ، ويدعو بك الملك ويطلقك من الحبس وأما الآخر وهو الخباز فيصلب وتأكل الطير من رأسه تعبيراً لما رأه من أنه يحمل فوق رأسه خبزاً فتأكل الطير منه " قضي الأمر الذي فيه تستفتيان " وهو ما رأياه وقصاه عليه)) (٢٤). وكان يوسف (ع) قد طلب من الساقي بعد خروجه من السجن أن ((يذكره عند الملك ويصفه بما شاهده منه من جودة التعبير والأطلاع على شيء من الغيب ليكون ذلك سبباً لأنتباهه الى ما وقع من الظلم البين على يوسف بسجنه بعد أن أرى من الآيات ما يدل على براءته)) (٢٥). فنلاحظ من خلال حلم الساقي والخباز عودة الحلم من جديد ليشكل خطاً اخر من الأحداث متواصل مع الخط

الأول الذي شكله حلم سيدنا يوسف (ع) من الآية الرابعة الى الآية الخامسة والثلاثين ونلاحظ أيضاً الحدث يسير بشكل دائري يبدأ من حلم يوسف (ع) حتى يتوقف مع دخوله السجن ثم يبدأ من جديد مع حلم الساقي والخباز وخروجه من السجن بعد حلم العزيز الذي شكل الأحداث بأتجاه تحقيق رؤيا سيدنا يوسف (ع) أي بأتجاه العودة الى نقطة البداية في الحدث فمن خلال حلم (الساقي) عرف يوسف بعلمه في تأويل الرؤيا ومن خلال حلم الملك خرج يوسف من سجنه حيث أشتدت محنته ولما أقترب الفرج ((رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجبته فهالته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان فدخلت في بطونهن فلم ير منها شيئاً ورأى سبع سنبلات خضر قد أنعقد حبها وأفركت وسبع آخر يابسات قد أستحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم)) [٢٦]. فكان جواب قومه أن ((قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين))[٢٧]. وفي جوابهم أضغاث أحلام دلالة أخرى على فضل علم التأويل فأعتقدوا أنه (أضغاث) أحلام وهي ((الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها)) [٢٧]. فـ((تذكر الساقي يوسف (ع) وما شاهده منه من العلم بتعبير الرؤيا)) [٢٨]. فلما عبر يوسف (ع) رؤيا الملك ((رغب الى رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله ما علمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه))[٢٩]. فنلاحظ الأحداث بعد تأويل رؤيا الملك وخروج يوسف من سجنه تبدأ بالتصاعد بأتجاه النهاية أي بأتجاه تحقيق الرؤيا الأولى سيدنا يوسف(ع) فأصبح يوسف ذا مكانة عند الملك بعد تأويله الرؤيا وأصبح موضع ثقته بعد ما عرفه عنه من علمه في أوجه جمع الأموال وتصريفها إذ آلت اليه خزائن مصر كلها وأعتلى عرشها ورفع أبويه على العرش أي أجلسهما معه على السرير الذي يجلس عليه ((وخروا له سجداً)) أي الأبوان والأخوة وكان ذلك جائزاً في شريعتهم منزلاً منزلة التحية))[٣٠]. فصدقت رؤيا يوسف(ع) كما نصته الآية إذ قال ((يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً))[٣١]. فقد تحققت رؤياه وأعتلى عرش مصر وخروا جميعهم ساجدين له كما رأهم في المنام فكان للحلم في سورة يوسف وظيفة مركزية تجسدت في صناعة الحدث .

المصـــادر

- القرآن الكريم .
- معجم لسان العرب المحيط ، المجلد الأول للعلامة ابن منظور .
- الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي .
- زبدة التفسير ، محمد سليمان الأشقر .
- قصص الأنبياء، ابو اسحق احمد بن محمد بت ابراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي .

- تفسير الاحلام ، محمد بن سيرين .
- اسرار النوم ، الكسندر بوربيلي ، تعريب شبيب بيضون .
- الباراسايكولوجي والحياة ، العدد الثالث .

- الهوامش :

(١) الباراسايكولوجي والحياة ، العدد الثالث ، حزيران ١٩٩٢ ، ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٩
(٣) أسرار النوم ، الكسندر بوربيلي ، ٦٧ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه ، ٧٠ .
(٦) لسان العرب المحيط ، المجلد الأول ، العلامة أبن منظور ، ٧٠٧ .
(٧) زبدة التفسير ، محمد سليمان الاسقر ، ٣٠٩ .
(٨) تفسير الأحلام ، محمد بن سيرين ، ٥ .
(٩) قصص الأنبياء ، أبو أسحاق أحمد بن أبراهيم النيسابوري ، ١١٤ .
(١٠) سورة يوسف ، الآية الرابعة .
(١١) المصدر نفسه ، الآية الخامسة .
(١٢) زبدة التفسير ، ٣٠٨ .
(١٣) سورة يوسف ، الآية الثامنة .
(١٤) زبدة التفسير ، ٣٠٨ .
(١٥) المصدر نفسه ، ٣٠٣ .
(١٦) قصص الأنبياء ، ١١٤ .
(١٧) المصدر نفسه ، ١١٦ .
(١٨) ينظر : قصص الأنبياء ، ١٢٥ .
(١٩) سورة يوسف ، الآية السادسة والثلاثين.
(٢٠) قصص الأنبياء، ١٢٥ .
(٢١) زبدة التفسير ، ٣٠٨ .
(٢٢) سورة يوسف ، الآية السادسة .
(٢٣) سورة يوسف ، الآية السادسة .

(٢٤) زبدة التفسير ، ٣٠٩ .

(٢٥) المصدر نفسه .

(٢٦) قصص الأنبياء ، ١٢٩ .

(٢٧) سورة يوسف ، الآية الرابعة والأربعين .

(٢٨) الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ٣٨١ .

(٢٩) زبدة التفسير ، ٣١٠ .

(٣٠) المصدر نفسه .

(٣١) المصدر نفسه ، ٣١٨ .

(٣٢) سورة يوسف ، الآية المائة .